بين أدب المرأة وأدب الرجل

للسيدة الفاضلة منيبة الكيلاني

[كاتبة هذا المقال الظريف سيدة عراقية حديثة قل فى مصر نفسها من تضارعها فى عمق الثقافة وسعة الاطلاع وأصالة الفكر. تلقت دروسها الثانوية فى بغداد، والجامعية فى بيروت، ثم سافرت إلى انجلترا فتخصصت فى التربية وعادت إلى بغداد فعينت بمدرسة الفنون البنية. ثم رحلت مرة أخرى إلى انجلترا فى بعثة المعهد الثقافى البريطانى ورجعت بعد ذلك إلى التدريس وللأستاذة منيبة نشاط محمود فى الخدمة الاجتماعية والنهضة النسوية والحركة الأدبية، نرجو أن تكون هذه المقالة فاتحة لتسجيل آثاره على صفحات الرسالة] .

١ — أدب للرجل وأدب للمرأة :

يرى الناظر فى كتب الأدب وتاريخه أن الكتاب اصطلحوا على تقسيمات وأنواع للأدب تحتوها من عصور الأدب أو من خصائصه بالقدر الذى يتعلق بعرضه لا بجوهره ، فقال الأقدمون منهم مثلا بوجود أدب جاهلى وأدب مخضرم وأدب إسلامى ، وفصلوا الأخير منه بحسب ما حكم الأمة العربية أو بحسب ما تنقلت إليه الحكومات العربية من حواضر وبلدان ، فوسموا بعضه بالأدب الأندلسى ، وسموا بعضه بالأدب العباسى ، وغير ذلك من التسميات التى استندت فى الأكثر على هذه الاعتبارات التاريخية والجغرافية المحض . وأشاح المحدثون عن مثل هذه الاعتبارات لأن الفنون الأدبية تنصاع إلى العـــوامل التاريخية بقدر ما تؤثر تلك الاعتبارات فى مبانى الألفاظ واتجاه التراكيب اللفظية وإبقالها فى البداوة أو قربها من الحضارة مما يجعل فنونها فى الأولى متعددة الألوان والأوصاف لا يخرجها من الرثاء والمديح والعتاب والوصف والموشحات والنزل والتشبيب إلا بالقدر الذى عرف فى تلك الفترة من مدلولات الألفاظ وتحكم العادات فيها ... أعنى لا يخرجها عن القيود التاريخية كبير فرق ، بينما تنعكس الحالة انعكاساً كبيراً فى ضوء الأدب نفسه ، فيتفرع عن هذا ألوان جديدة هى غير الرثاء والمديح والوصف والموشحات والنزل والتشبيب ... فهى على هذا ليست موضوعات وإنما هى فصول وأبواب وأجزاء ومباحث تدخل فيها تلكم الموضوعات دخولا ثانوياً لا أقل ولا أكثر . فمن ذلك أن ينقسم الأدب غير انقسامه الأول إلى أدب واقعى Realist ومثـــالى Idealist ورمزى Symbolist أو إلى أدب صـوفى ومكشوف أو إلى أدب مأساة Tragedy وأدب ملهاة Comedy ، وإلى أدب تحليلى أو وجدانى أو مسرحى ، أو إلى أدب ابداع Romantic وأدب اتباع Classic ، وإلى أدب فلسفى وقصصى ، وأدب تبشير وأدب سـياسة وكثير من غيرها مما يكبر عن التقسيم الأول ويطول عليه بسبب أن ذلك التقسيم صادر على سبيل الحصر وهذا صادر على سبيل الاطلاق .

وكما أن لذلك التقسيم أنصاراً ومنتقدين فإن لهذا أنصـاراً ومنتقدين ؛ وكما أن ذلك التقسيم على شدة وضوحه وتعيين حدوده موضع لبعض الانتقاد ما دام يستمد فوارقه وضوابطه عن طريق التبعيض والتكتيل ... فهولا قبل له بما يضطلع به التقسيم الأساسى الذى يحتوى فى بطونه وثناياه ألوان الأدب وأفاعيل الزمان وأشتات الموضوعات وأصناف الأبواب السالفة الذكر ، ومن أجل ذلك أضحى لزاما أن يبدأ التقسيم هذا من مبدأ الأمر ليدخل فى كل قسم سائر ما فى هذه القدمة وغيرها من التفاصيل ، وعلى أن يكون التقسيم من الناحية الثانية معترفاً به دون جدال فما هو يا ترى ؟ أهو الأدب الحزين والأدب المرح ؟ أهو الأدب الجاهلى والأدب الإسلامى ؟ الجواب على هذه جميعاً (كلا) بل هو ـ أدب المرأة وأدب الرجل ـ وفى اللحظة التى نقرر فيها هـذا التقسيم نرى أنه استوعب تقسيم الأوائل والأواخر بدون استثناء ، كما أنه احتوى مادة لا تنضب من عبقرية الأدب ، فاحتوى خصائص

« النشاط » الذى لا يقاس دائما بمقياس المحسوسات . بل يتعداها إلى ما وراء الحس والعقل والخيال ...

هذان الكتابان — كتاب الفصوص وكتاب الوجود — هما من مظاهر النزعة الروحية التى توازن عندنا تلك النزعة الجسدية ، كما تتمثل فى الصور المثيرة والأقاصيص الماجنة والشواغل الحسية ، وكفى بأمثال هـذه المباحث عدلا كافياً للموازنة بين النزعتين . فإنها لدليل على يقظة الجانب الرفيع من ملكات الإنسانية بين المصريين وبين قراء العربية على التعميم . وما أحوجنا اليوم إلى اليقظة فى هذا الجانب الرفيع !

عباس محمود العقاد

ينفرد بها أحد النوعين ، واحتوى بالإضافة إليها ما يسود النوعين على حد سـواء ، فينصرف تارة إلى ما يتعلق بتراث المرأة ، وينصرف أخرى لتراث الرجل .

وبعد فلئن صح أن الأدوار التاريخية من جاهلية وإسلامية ، وأدوار الحكم الإسلامي من أموي وعباسي وأندلسي، قد فرقت أنواع الأدب بعضها عن بعض، فإن تلك الأدوار ذاتها قد أثرت تأثيرات متفاوته في الرجل والمرأة ، فجاء أدبهما جد مختلف ولو في دور واحد لفرط ما أثرت عوامل الدور الواحد في كل جنس دون صاحبه ، فجاء أدب المرأة منذ أقدم عصوره أصدق أنباء وأكثر انطباقاً على الواقع ، وتكفل أدبها بأسباغ الألوان الحسان والدقة البالغة والجمال الرفيع على أدب الرجل ، وأضحى بعد ذلك يحمل راية الإباء والأنفة والشمم . وجاء أدب المرأة يشد من أدب الرجل ليجعل منه أكثر موافقة ومسايرة للزمن ، وليلهب نشاطه الفكري والاجتماعي ، ويأخذ من الصراحة بنصيب ، ومن التلميح بنصيب ، مما قد لا يدركه الرجل على وجهه بعد أن أعملته الفتوح وبهرت عينيه ثروات الزمان في قبضة يده يصرفها كيف أراد . وجاء أدب المرأة للعقل ، وأدب الرجل للعاطفة ، عند ما تطيش الحلوم ، وتراش السهام ، ويدير المنطق وتقبل بدوات الثأر ، وتفرورق العيون من رثاء أو عتاب أو ثكل ، فيعمل الرجل بعاطفته ويفكر بقلبه ، وتسكت هي بفكرها وتتكلم بعقلها فتتم نقصه وتضفي على أدبه اللون القوي العتيد الذي يعوزه . وجاء أدب المرأة بعد هذا لحسن حظها فاقداً بعض الحلقات الموفورة في أدب الرجل، فليس فيه التعريض ولا ترى المحصنات الغافلات ، ولم يحو التشكك ولا التجني ولا الوسواس ، ولو حوى بعضها جدلا لما كانت من العمق والنور والاثم بالقدر الذي احتواه نتاجه . وجاء أدب المرأة كذلك منحدراً عن أساتيذ لم يعرفهم الرجل ، فقد انحدر بعضه عن تعدد الزوجات وأحاسيسها ، والطلاق وظله الثقيل ، والحجاب غير الشرعي ، والجهل والأمية المفروضة ، وزحمة المسترخصات من الجواري والقيان المزاحمات للبيت الشريف والزوجية المقدسة ، والعضل .

وجاء أدب المرأة متجهاً غير اتجاه أدب الرجل ومتأثراً بهذا العصر وفنونه وعلومه وخصائصه تأثراً غير تأثره ، وهذه كلها أبحاث سنقوم على شرحها والتمثيل عليها واثباتها في حلقات هذه السلسلة حتى تستقيم منها دراسة لموضوعنا قائمة على أسس غير ما تعارفه بحاث الأدب حتى الآن .

هذه الفروق التي ذكرتها تتوفر في كل فن من فنون الشعر ولكنها أول ما تتوفر في الوصف ؛ فانظروا كيف تكون .

قال شاعر الفلاسفة أبو العلاء المعري في صباه :

عللاني فإن بيض الأماني ... فنيت والظلام ليس بفان
إن تناسيتما وداد أناس ... فاجعلاني من بعض من تذكران
رب ليل كأنه الصبح في الحسـ ... ـن وإن كان أسود الطيلسان

ويقول فيها وهو من رائع القول :

ليلتي هذه عروس من الزـ ... ـنج عليها قلائد من جمان
وكأن الهلال يهوى الثريا ... فهما للوداع معتنقان
ثم شاب الدجى وخاف من الهجـ ... ـر فغطى المشيب بالزعفران

هذا من وحي الصبا ؛ وأروع منه عندي قول جحناء بنت نصيب وقد افتر الضحى عن نهار بسام وجاءت مع أبيها نصيب فأنشدت المهدي الخليفة العباسي هذا الوصف على قافية شاعر الفلاسفة ووزنه وقصيدته ومعناها :

رب عيش ولذة ونعيم ... وبهـاء بمشرق الميدان
بسط الله فيه أبهى بساط ... من بهار وزاهر الجوزان
ثم فيه من ناضر العشب الأخضـ ... ـر تزهو شقائق النعمان
مده الله بالتحاسين حتى ... قصرت دون طوله العينان
حفلت حافتاه حيث تناهى ... بخيام في العين كالظيلمان
زينوا وسطها بطارمة مثـ ... ـل الثريا يحفها النسران
ثم حشو الخيام بيض كأمثـ ... ـال المها في صرائم الكثبان
يتجاوبن في غناء شجي ... « أسعداني يا نخلتي حلوان »
فبقصر السلام من سلم الله ... وأبقى خليفة الرحمن
ولديه النزلان بل هي أبهى ... عنده من شوارد النزلان
يا له منظراً ويوم سرور ... شهدت لذتيه كل حصان

أحاط المعري ما وصف بتقييد ، وأشاح عما يصف إلى ما يصوغ به الوصف ، وجاءت هذه الشاعرة بالقول سافراً ، ووضعت فيه تفاصيل البناء ، واقتبست غناء المغنيات ، ردعت للخليفة ، ولم يفتها في وسط هذه الفتنة أن تجعل اللذتين لذة الناظر ولذة السرور مقصورة على الحصان من النساء فأفردت بذلك غريماتهن من المسترخصات على أنهن لهو وعبث ومتاع ، فلا لذة لهن من هذا القبيل . أليس هذا بعد الذي أوضحت أصدق إنباء وأكثر بياناً وتبياناً ؟

وليس هذا في مجال الوصف فقط فقد يصف الشاعر المفلق

مشهداً محزناً فتفوقه بذلك شاعرة ها طول باعه .

هذا الرومى ، والمشهد المحزن هو موت ولده ، والشاعرة امرأة لا اسم لها ، ومنظرها المحزن موت ولدها فى سفرها معه .

هذا ابن الرومى يقول وأروع ما يقول هو :

توخى حمام الموت أوسط صبيتى ... فلله كيف اختار واسطة العقد

— ألح عليه النزف حتى أحاله ... إلى صفرة الجادى عن حمرة الورد

وظل على الأيدى تساقط روحه

ويذوى كما يذوى القضيب من الرند

ويناجيه فيها بقوله :

أرى أخويك الباقيين كليهما

يكونان للأحزان أو رى من الزند

إذا لعبا فى ملعب لك لوّعا

فؤادى بمثل النار عن غير ما قصد

وتقول هذه المرأة :

ما كان إلاّ أن هجعت له ... ورمى فأغفى مطلع الفجر

إذ راعنى صوت هببت به ... وذعرت منه أيما ذعر

وإذا منيته تساوره ... قد كدّحت فى الوجه والنحر

وإذا له علق وحشرجة ... مما يجيش به من الصدر

والموت يقبضه ويبسطه ... كالثوب عند الطى والنشر

فدعا لأنصره وكنت له ... من قبل ذلك عُدة النصر

فمجزت عنه وهى زاهقة ... بين الوريد ومدفع السَّحر

فمضى وأى فتى لجمت به ... جلت مصيبته عن القدر

لو شاء ربى كان متعنى ... بابنى وشد بأزره أزرى

— بُنيت عليك بُنى ـ أحوج ما ... كنا إليك ـ صفائح الصخر

أى إعجاز هذا ؟ لقد وصفت الحشرجة والنزع والوفاة وعادت وهى أشد ما تكون لوعة إلى صوابها وعرفت أن ربها اختار لها هذا فكانت أصدق إنباء وكانت أكثر دقة وكانت قصيدتها للعقل والإيمان .

٢ — صراحة أدب المرأة :

إن الصدق فى الإنباء والدقة فى التعبير إنما يجيئان من توفر الإنسان على ما هو فى سبيله من الشأن والنظر إليه من ناحية الواقع المجرد ، وذلك حال المرأة فى تلك العصور ، فإن انكبابها على ما هى بسبيله ، وقصورها عن مجاراة الرجل فى مجال نشاطه خارج البيت ، أتاح لها أن تتوفر على الموضوعات التى تضطلع بها غير توفره ، وتصدر فيها عن حكمة وروية غير حكمته ورويته التى أبطرتها كثيرا التوسعات العسكرية ، والفتوحات ، وسلطان الحكم والظفر ، وهكذا كان الرجل يفتقر إلى مقطوعات من أدب المرأة تمر بها جهاته وتكفكف غلواءه ؛ فلقد وجدت السيدة زبيدة زوج الرشيد لزاما عليها أن توصى على بن عيسى وقد أمره الأمين بالشخوص لقتال المأمون بالوصية التالية التى تعتبر وثيقة خطيرة فى السياسة فضلا عن كونها قطعة رائعة من الأدب فتقول له:

« يا على ، إن أمير المؤمنين وإن كان ولدى وإليه انتهت شفقتى ، فإنى على المأمون منعطفة مشفقة لما يحدث عليه من مكروه وأذى ، وإنما ولدى ملك نافس أخاه فى سلطانه . فاعرف لعبدالله — المأمون — حق ولادته وأخوته ولا تجبهه بالكلام فإنك لست نظيراً له ، ولا تقتسره اقتسار العبيد ، ولا توهنه بقيد أو غل ، ولا تمنع عنه جارية أو خادماً ، ولا تعنف عليه فى السير ، ولا تسايره فى المسير ، ولا تركب قبله ، وخذ ركابه إذا ركب ، وإذا شتمك فاحتمل منه » .

بهذا القدر من الحدود وضعت السيدة زبيدة قائد جيش ولدها الأمين الذاهب لمقاتلة المأمون غريمه على العرش ... وبهذا الخطاب الرائع كبحت سورة نفسه وأعلنت أدبها المتجاوب الأجزاء المتماسك الأطراف ، وأعربت عن سموه . وبهذا الأمر السامى أثبتت أن أدب المرأة للعقل لا للعاطفة ، وأنه صادق فى الإنباء ، دقيق فى الأداء ، وإلا كان فى بعض هذا الذى قالت كفاية ، وبهذه الوصية الدقيقة المحددة وضعت سياسة العقيدة التى تدين بها بقولها « وإن كان ولدى ، وإليه انتهت شفقتى ، فإنى على عبد الله منعطفة مشفقة لما يحدث عليه من مكروه ...

وليست السيدة زبيدة وحدها ذات المقام المرموق فى السياسة والأدب ، ولا عقيلات الخلائف أو بنات القصور ، بل قد يتوفر هذا الضرب من الكلام الحكيم والرأى الثاقب فى فتاة من عامة الناس لا صلة لها ببلاط الملك ولا سلطان الحكم مما يؤيد أن المسألة إنما هى أدب المرأة على أشد ما يكون الاطلاق شمولا .

قصة امرأة من الخوارج أرسلت أسيرة للحجاج بها وهى